دلالة الالتفات في أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب من خلال القراءات الشاذة وأثره في المعنى

إعداد

أحمد رأفت عبد الرشيد زنفل

باحث دكتوراة بقسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة السويس

الملخص:

تناول البحث صورة من صور الالتفات في القرآن الكريم من خلال القراءات الشاذة ، وأثرها في المعنى، وهي الانتقال من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب موضحًا تنوع زوايا الخطاب الإلهي الذي اقتضى تحولًا وعدولًا عن السياق الطبيعي للضمائر، وأثر ذلك التنوع والاختلاف في التفسير والكشف عن بعض المعاني المتناثرة في كتب القراءات والتفسير، فالالتفات هو الإشارة الى شخص بضمير لا يطابقه على طريقة (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)، وهذه التحولات في السياق القرآني تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المتوقع لديه من اطراد السياق على نمط واحد، مما يدعو ذلك المتلقي للتفكر والتمعن في المعنى.

الكلمات المفتاحية:

(الالتفات- السياق- الشاذة- الخطاب)

Summary:

The research tackles an Iltifat image from Holy Qur'an, through anomalous readings and its impact on the meaning, and it is the transformation from the occultation styles to the discourse one, elucidating the variety of divine discourse angles that necessitate turning and running the normal context of the pronouns. Accordingly, this diversity affects the interpretation and declaration of scattered meanings in scripture and interpretation books. Further, Iltifat is referring to someone by utilizing a pronoun that does not correspond to him, for example (thou I mean and O neighbor, listen). These transformations in the Qur'anic context surprise and fascinate the recipient because they deviate from the norm of context sequence, urging the recipient to think and consider the meaning.

Keywords: Iltifat, context, occultation, discourse.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وأساليبهم ووفق طرائقهم في التعبير، ولما كان جوهر الإعجاز لغويًا بلاغيًا كان العكوف على معرفة خصائص لغته وأسرار بلاغته وراء ازدهار الدراسات البلاغية، حيث يؤسس النص القرآني بيئة خصبة لأساليب البلاغة، ومن هذه الأساليب البلاغية أسلوب الالتفات الذي يشغل حيزًا واسعًا من تلك الأساليب؛ فهو أسلوب يفيد الكلام ظرافة وحسن تطرية، فهو ينقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب فيهز النفوس ويؤثر في القلوب وفي دلالته الدقة وجمال السبك، وهذه التحولات في السياق القرآني تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المتوقع والمألوف لديه من اطراد السياق على نمط واحد، مما يدعو بذل المتلقي للبحث عن مثيراتها السياقية، فالسمة المميزة لهذا الأسلوب كونه يضبط بضابط السياق؛ فالسياق هو الذي يحدد المعنى الأسلوبي للنص، وقد حوت آيات القرآن الكريم كثيرًا من شواهد الالتفات، حيث إنه من أكثر الأساليب القرآنية ترددًا، وأوسعها انتشارًا، بل إنك لتجد في الآية الواحدة أكثر من التفات، فهو فن من فنون البلاغة التي استعملها العرب في كلامهم، وأسلوب ذو صلة بالذوق والنظم، وله في الكلام أثر كبير الفائدة، ولقد حرص علماء اللغة والبلاغة عمومًا ومفسري القرآن الكريم خصوصًا على مر الزمان والعصور على فهم كتاب الله تعالى، وبذلوا جهدهم في تفسيره، والكشف عن أسراره، واستخراج

علومه، واستنباط أحكامه، ومعرفة مقاصده وأغراضه وقد سلكوا في سبيل ذلك طرقًا شتى وأساليب متنوعة، ليكون ذلك عونًا لهم في بلوغ مقصودهم والوصول إلى غاياتهم، وقد كان الالتفات من المواضيع التي لقيت عناية فائقة من المفسرين خصوصًا في مضامين تفاسيرهم مما يدل على أهميته، ويعد تنوع أوجه القراءات في أي آية كريمة من أهم الأمور التي تُسهم في بيان طاقات المفردة القرآنية التي لا تُحد. وهناك دراسات تناولت الالتفات بوصفه موضوعًا رئيسًا، ومن بينها ما اعتمد على رواية حفص عن عاصم، ويأتي في مقدمة هذه الدراسات كتاب أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل، حيث قدم تأصيلًا نظريًا لظاهرة الالتفات لا بمفهومها الضيق الذي تنحصر به في نطاق التحول بين الضمائر، بل بمفهومها الواسع الذي تشمل به كل تحول أو انكسار في نسق التعبير، حيث تناول بالتحليل لبعض المواطن القرآنية التي تمثلت فيها صور الالتفات في (الصيغ–العدد–الأدوات–الضمائر–البناء النحوي–المعجم)، ثم ختم الكتاب بثبت تفصيلي بمواضع الالتفات في القرآن الكريم–حسب رواية حفص عن عاصم، وبذا تعد دراسته في جانبها التطبيقي غير مقيدة بمنهج محدد إذ إن تناوله لهذه الصور وهي متباينة أبعد الخصوصية التي تمتاز بها ظاهرة الالتفات، كل ذلك جعل مفهومه للالتفات مرادفًا لمفهوم العدول بمعناه الواسع لدى الاسلوبين، غير أن هذا التوسيع في المفهوم لا يتفق مع منهجي في هذا البحث، إذ إنني أتناول الالتفات كظاهرة محددة في نطاق التحول بين الضمائر الثلاثة فقط: المتكلم، والمخاطب، والغائب، من خلال القراءات الشاذة.

وقد احتوى البحث على مطلبين، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع:

المطلب الأول: أثر القراءات الشاذة في المعنى

المطلب الثاني: الانتقال من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب

ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث ثم قائمة بالمصادر والمراجع.

***

المطلب الأول

أثر القراءات الشاذة في المعنى

من بين القراءات القرآنية التي لاقت اهتمامًا وتأملًا في دلالاتها وتأثيرها في المعنى، تَبرُز القراءات الشاذة، رغم أنها لم تنل من الجمع والدراسة ما حظيت به القراءات العشر المتواترة، حيث انصرف الاهتمام في الغالب إلى توجيه وبيان القراءات المتواترة فقط، ومع ذلك تشترك القراءات الشاذة مع المتواترة في سمة الإعجاز، ولا يمكن عزلها عن السياق القرآني، فهي تُؤدي المعنى المقصود من الآية تمامًا كما تؤديه القراءات المتواترة، ويتجلى أثر القراءات الشاذة في دلالة هذه القراءات ضمن سياقها وما تثمره من تفسيرات، وتوجيهات بلاغية ما كانت لتتضح إلا بوجود تلك القراءات الشاذة، فكل قراءة ولو كانت شاذة فهي بمثابة آية لها دلالتها وتوجيهها في التفسير.

ولمعرفة لغة العرب وأساليب خطابهم أهمية كبيرة في تفسير كلام الله –جل ثناؤه–، حيث يُعين ذلك على إزالة ما يُثقل نفوس السامعين، لا سيما إذا جاءت الدعوة بمراعاة مشاعر المدعوين وموافقتهم في ما يُثير نفوسهم، فلو أن الداعية بدأ بتخطئة المدعو أو تسفيه أفعاله، لما وجد سبيلًا إلى قلبه، أما الحكمة الحقيقية فتكمن في كسب العاطفة أولًا، ثم التوجيه الفكري بهدوء؛ ليصل بالمدعو إلى الفكرة المرجوة في جوٍّ من الطمأنينة والسكينة، ذلك أن

شعور المدعو بالأمن والطمأنينة النفسية يجعله أكثر استعدادًا لتقبّل الخطاب، ويهيئه للنظر بعين الرضا والانفتاح.

ومن اللافت للنظر أن هناك قراءات شاذة وردت عن القراء العشرة حتى إن بعض المفسرين يذكر قراءة أحدهم في كتبه دون الإشارة إلى أنها شاذة عنهم،[١] فظن البعض أنها من القراءات المتواترة، وهذا الأمر يزيد في أهمية القراءات الشاذة وبيان أثرها؛ لذلك تعد القراءات الشاذة مجالًا خصبًا للدارسين يربطونها بالقراءات المتواترة مبينين ما يستنبط من هذه الحروف، فالالتفات في أسلوب الخطاب من الأساليب البلاغية الأكثر ترددًا، وأوسعها انتشارًا في النص القرآني، واستعملها العرب بقصد التفنن في الكلام وإثارة الذهن، وقد تستخدم في الشعر والنثر اضطرارًا مراعاة للوزن والقافية، ولكن هذه الظاهرة أضافت معاني أخرى ودلالات بليغة في النص القرآني في ضوء اختلاف القراءات الشاذة، فللقراءة الشاذة مكانة عظيمة بين العلماء حيث قال ابن جني: "إلا أننا وإن لم نقرأ في التلاوة به مخافة الانتشار فيه، ونتابع من يتبع في القراءة كل جائز رواية ودراية، فإنا نعتقد قوة هذا المسمى شاذًا، وأنه مما أمر الله تعالى بتقبله وأراد منا العمل بموجبه وأنه حبيب إليه، ومرضي من القول لديه."[٢]

ولم يزل العلماء يستنبطون من كل حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر، فالقراءات حجة الفقهاء في الاستنباط، فالمقصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة، وتبيين معانيها، وبيان أثرها النحوي، والترجيح بها عند المعتد بها، وتصحيح لغة من لغات العرب قال أبو عبيد: "فأما ما جاء من هذه الحروف التي لم يؤخذ علمها إلا بالإسناد والروايات التي يعرفها الخاصة من العلماء دون عوام الناس، فإنما أراد أهل العلم منها

أن يستشهدوا بها على تأويل ما بين اللوحين، وتكون دلائل على معرفة معانيه وعلم وجوهه، فهذه الحروف وأشباه لها كثيرة قد صارت مفسرة للقرآن، وقد كان يروى مثل هذا عن بعض التابعين في التفسير فيستحسن ذلك، فكيف إذا روي عن لباب أصحاب محمد–صلى الله عليه وسلم–، ثم صار في نفس القراءة؟ فهو الآن أكثر من التفسير وأقوى، وأدنى ما يستنبط من علم هذه الحروف معرفة صحة التأويل، على أنها من العلم الذي لا تعرف العامة فضله، إنما يعرف ذلك العلماء."(٣)

إن اشتراط مطابقة القراءات القرآنية للرسم العثماني لم يكن مؤديًا إلى فقدان المعنى القرآني للقراءات الشاذة ولكن أدى إلى زيادة المعنى والبيان، ونجد أن الالتفات في القراءات الشاذة لم يكن مقتصرًا على تغيير الضمائر والانتقال من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى أحدها، ولكن هذا التغيير أدى إلى تأثيرات بلاغية أخرى اختص بها كل موضع.

المطلب الثاني

الانتقال من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب

يُعد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب من الأساليب التي زخر بها القرآن الكريم، فهي أقوى الصور؛ إذ تضع كلا من الطرفين–الملتفِت والملتَفت إليه وجها لوجه أمام الحقيقة وقد بين البلاغيون والمفسرون ما ظهر لهم من علل تلوين الخطاب، حيث يشكل هذا الأسلوب تحولًا في معايير التوجه لدى المخاطب؛ ذلك أن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب يؤسس علاقات ومقاصد بلاغية تسترعي انتباهه، وتحثه على معرفة الأسباب التي تقف وراء هذا التحول في السياق، حيث تستخدم صورة الالتفات في القراءات الشاذة من الغيبة إلى الخطاب للعديد من النكت البلاغية منها التوبيخ والتقريع والتهديد

والتحذير وأيضًا في التبشير، والتحضيض على فعل الخير طبقًا للسياق القرآني، فهي أبلغ في تشديد الوعد والوعيد وإيقاعًا للحجة على المنكرين؛ لذا كان الأولى أن تستعمل في مواطن التخويف لا في مواطن الإيناس وإن كانت قد وردت لهذا الغرض وفي تبشير المؤمنين كما سنذكرها في مواضعها ولكن بشكل قليل.

فمن المواضع التي ورد فيها هذا اللون البلاغي قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)"(٤)

القراءات الشاذة في الآية: وردت قراءة شاذة في قوله "ما يُنْفِقُونَ" بقراءة (تنفقون) بتاء الخطاب، رويت عن عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج، وعيسى بن عمر رضي الله عنهم.(٥)

بعد أن بين الله تعالى أحوال مؤمني أهل الكتاب وما قاموا به من الخير وأنهم لا يحرمون ثوابه، بل يجنون في الآخرة ثمرة ما غرسوه في الدنيا، ذكر سبحانه شيئًا من أحوال الكافرين والمنافقين وكل من كفر بما يجب الإيمان به، وبيان ما ينفقونه، وأن أموالهم لا تغني عنهم شيئا أمام عذاب الله، حتى لو أنفقوها في وجوه الخير، فقد يتوهم البعض أنهم ينتفعون بها، فأزال الله تعالى بهذه الآية هذا الوهم، وضرب لها مثلًا بذهابها وبين أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله، جامعًا بين الزجر والترغيب والوعد والوعيد؛ ليتضح الفرق بين الفريقين.

ثم ضرب الله تعالى مثلًا لمن أنفق ماله في غير طاعة ربه ومرضاته، فشبّه سبحانه إنفاقهم – الذي لا يُراد به وجه الله – بحالة زرع أصابته ريح شديدة البرودة (فيها صِرّ)، فأهلكت ما فيه من نفع ورجاء، والمراد أن أعمالهم وإن كانت في ظاهرها خيرًا، فإنها تذهب هدرًا لعدم الإخلاص، وكونها صادرة عن رياء أو لأغراض دنيوية، فإن إنفاقهم في إيذاء الرسول – صلى الله عليه وسلم– من أعظم أنواع الكفر ومن أشدها تأثيرا في إبطال آثار أعمال البر.

في قوله تعالى: "مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا"، يكمن تشبيه دقيق بين: ما ينفقه الكافر أو المنافق في الدنيا من أموال يظنها قربة، وما يحصل له يوم القيامة من خيبة وحسرة لذهاب أثرها، وتمثل الآية قمة البلاغة من خلال الجمع بين الزجر والترغيب، والوعد والوعيد، لتمييز المؤمن المخلص عن الكافر أو المنافق الذي يُنفق رياء أو نفاقًا.

في قوله تعالى (مثل ما ينفقون)، قال ابن الجوزي–رحمه الله–: "اختلفوا فيمن أنزلت على أربعة أقوال: أحدها: أنها في نفقات الكفّار، وصدقاتهم، قاله مجاهد. الثاني: في نفقة سفلة اليهود على علمائهم، قاله مقاتل. والثالث: في نفقة المشركين يوم بدر. والرابع: في نفقة المنافقين إذا خرجوا مع المسلمين لحرب المشركين، ذكر هذين القولين أبو الحسن الماوردي."(٦)

فالضمير في قوله (ينفقون) إما أن يكون عائدًا إلى الكفار، أو إلى المنافقين في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقد وردت القراءة الشاذة (تنفقون) بتاء الخطاب فيظهر أسلوب الالتفات حيث يخاطب الله المنافقين مباشرة، مما يزيد من حدة التوبيخ والوعيد، ويجعل المتلقي في مواجهة مباشرة مع حقيقة أفعاله، فهذا الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب يقوي الحجة،

ويُظهر قبح فعلهم، خاصة أنهم يُنفقون لا ابتغاء لوجه الله، بل خوفًا ورياءً ومداراة للمؤمنين.

هذه الصورة من صور الالتفات تضع كلًا من الملتفِت والملتفت إليه وجهًا لوجه أمام الحقيقة، وتُبرز هذه الآية نموذجًا بليغًا للوعيد الرباني، وتُظهر أثر الإخلاص في قبول العمل، فالعمل الذي لا يُبتغى به وجه الله، مهما بدا جليلًا، فإنه يضمحلّ ولا يُقبل، كما يضمحل الزرع الذي أهلكته الرياح الباردة، فالالتفات هنا ليس مجرد تغير في الأسلوب، بل وسيلة بليغة في تشديد التوبيخ، وتقوية أثر الوعيد، وتحقيق الموعظة في القلوب.

***

ومن المواضع أيضا قوله تعالى: "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)"(٧)

القراءات الشاذة التي أثرت في معنى الآية: (ألم تعلموا)(٨) بتاء الخطاب المفتوحة والبناء للفاعل، رويت عن علي وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن–رضي الله عنهم–، وقد حملت هذه القراءة دلالة مغايرة لقراءة "ألم يعلموا" المشهورة، حيث تضمنت التوجيه الخطابي للمؤمنين بدلًا من المنافقين.

إن أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم يعد من أبرز الأساليب البلاغية التي تكشف عن خفايا المعاني وأسرار التعبير، فيوقظ القلوب والأسماع قبل الأبصار، وينقسم الاستفهام في القرآن إلى قسمين:

– استفهام حقيقي: فهذه دلالته وضعية وهي طلب معرفة شيء مجهول يحتاج إلى جواب، فالمستفهم يطلب فهم شيء يجهله من المخاطب بالاستفهام.

– استفهـــام بلاغي : يُستخدم لأغراض بيانية وبلاغية لا تتطلب جوابًا، بل يُراد به إيصال معانٍ معينة للمخاطب، يُستدل عليها من سياق الكلام ومقامه، وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى أغراض بلاغية مجازية أخرى تعرف من خلال السياق أو الموقف الذي ورد فيه السؤال، ومن هذه الأغراض البلاغية التشويق– الإنكار– النفي– التمني –التقرير– التهكم – السخرية– التعجب – والمدح التعظيم، وسر جمال الاستفهام البلاغي أنه يعطي الكلام زيادة الإقناع والتأثير والتشويق، وإثارة السامع والقارئ، ليصل بنفسه إلى الجواب دون أن يملى عليه.

وفي قوله تعالى: "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ" يُخبِر الله – سبحانه وتعالى– نبيه محمدًا –صلى الله عليه وسلم– عن المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر، ويتناجون فيما بينهم بالسوء تجاه المؤمنين، وقد اقترن في الآية السرّ بـــالنجوى، فالسرّ يشير إلى ما يخفونه في صدورهم، بينما النجوى تتعلق بما يقال خفية في حق الغائبين من المؤمنين.

"ولما كانت المعاهدة سبباً للإغناء في الظاهر، وكان ذلك ربما كان مظنة لأن يتوهم من لا علم له أن ذلك لخفاء أمر البواطن عليه سبحانه، وكان الحكم هنا واردًا على القلب بالنفاق الذي هو أقبح الأخلاق مع عدم القدرة لصاحبه على التخلص منه، كان ذلك أدل دليل على أنه تعالى أعلم بما في كل قلب من صاحب ذلك القلب، فعقب ذلك بالإنكار على من لا يعلم ذلك والتوبيخ له والتقريع فقال: "أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ""[٩]

ويُفهم من هذه الآية توبيخ الله للمنافقين، وتذكيرهم بأن الله مطّلع على خفاياهم، يعلم سرائرهم وعلانيّتهم، ومن هنا جاء الاستفهام بصيغة الإنكار والتوبيخ فالآية تُظهر إحاطة علم الله بأحوالهم وتكشف زيفهم وتواطؤهم ضد النبي–صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين.

لم يكن تنوع المفردات القرآنية لغرض الترادف وتغير اللفظ، فكل مفردة وإن دق خفاء معناها لن نجد لها بديلًا في موضعها، والنجوى إحدى تلك المفردات التي تدخل في الإسرار.

"فالسر ما ينطوي عليه صدورهم، والنجوى ما يفاوض فيه بعضهم بعضا فيما بينهم، وهو مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي كأن المتناجيين منعا إدخال غيرهما معهما وتباعدا من غيرهما، إذا عرفت الفرق بين السر والنجوى، فالمقصود من الآية كأنه تعالى قال: ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم فكيف يتجرءون على النفاق الذي الأصل فيه الاستسرار والتناجي فيما بينهم مع علمهم بأنه تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر، وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر؟"(١٠)

فالسرّ يشير لما أخفوه عن الناس وتداولوه بينهم، والنجوى تشير لقول السوء على الغائبين من المؤمنين، وإنما عطفت النجوى على السر لينبئهم باطلاعه على ما يتناجون به من الكيد والطعن، فالسر أعم ويشمل كل ما خفي بين اثنين أو أكثر، بينما النجوى متعلقة بما خفي عن الغائب المذكور في النجوى ولا يشترط أن تكون سرا، ولكنها عن الغائب المذكور سرية وإلا فلا تسمى نجوى، وسمي تكليم الله تعالى موسى عليه السلام مناجاة لأنه كان كلامًا أخفاه عن غيره، ثم عمم ذلك بقوله: وأن الله علام الغيوب أي قوي علمه لجميع الغيوب.

ومن أسرار النظم القرآني وبلاغاته، توكيد الخبر بأن والاسم الظاهر لفظ الجلال –الله– لتربية المهابة والرهبة، كذلك إيثار علَّام وهو صيغة مبالغة، للدلالة على سعة علمه وشموله.

وذكر أبو السعود في تفسيره من الأسرار البلاغية في الآية أن سر تقديم السر على النجوى سيظهر في قوله سبحانه {وستردون إلى عالم الغيب والشهادة} {وأن الله علام الغيوب} فلا يخفى عليه شيء من الأشياء حتى اجترأوا على ما اجترأوا عليه من العِظائم، وإظهار اسم الجلالة في الموقعين لإلقاء الروعة وتربية المهابة.(١١)

ووردت القراءة الشاذة–ألم تعلموا– لخطاب المؤمنين وهم المقصودون به، أي ألم تعلموا أيها المؤمنون أن الله يعلم سر هؤلاء المنافقين، "وأنه تعالى فاضحُ المنافقين، ومُعلِم المؤمنين أحوالهم التي يكتمونها شيئا فشيئا، {سرهم ونجواهم}، هذا التقسيم عبارة عن إحاطة علم الله بهم، والظاهر أن الآية في جميع المنافقين من عاهد وأخلف وغيرهم، وخصتها فرقة بمن عاهد وأخلف."(١٢)

فمقتضى سياق الآيات الحديث عن المنافقين وتوبيخ الله –سبحانه وتعالى– لهم في قوله "أَلَمْ يَعْلَمُوا" بياء الغيبة ليناسب سياق الآيات، فجاءت القراءة الشاذة (ألم تعلموا) بتاء الخطاب بعد أن كان السياق للغائب على طريقة الالتفات، والخطاب للمؤمنين لتقريرهم وتؤكد هذا المعنى؛ تثبيتاً وتعزيزًا للمؤمن بذلك، واستنكارًا للمتردد في تصور سعة علم الله عز وجل، وتنبيههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم، وختمت الآية "عَلَّامُ الْغُيُوبِ"، والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى بعلم الغيبيات لأن كونهم عالمين بذلك معروف لدى كل سامع،

ومعنى التقرير: إلجاء المخاطب إلى الإقرار بأمر يعرفه، كقوله تعالى: "ألم نربك فينا وليدا" و"ألم نشرح لك صدرك"، والغرض من السؤال إخبارنا أن المنافقين عرفوا علم الله بكل شيء ومع هذا تعمدوا تناسى هذا وفعلوا ما فعلوا.

وأشار إلى هذا الالتفات البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل ولم يذكر فائدته، وكذلك السمين الحلبي وابن عادل، موضحين أن الالتفات في القراءة الشاذة يخدم غرضًا بلاغيًا مقصودًا، حيث يُلفت نظر المؤمنين إلى مراقبة الله، ويغرس فيهم اليقين بسعة علمه وقدرته على محاسبة العباد على ما في الصدور، وذكر البقاعي أن فائدة الالتفات الإشارة إلى أن هذا العلم إنما ينفع من هيىء للإيمان."[١٣] مما يُعمّق أثر الآية في نفوس المؤمنين، ويرتقي بهم من الإيمان إلى الإحسان، وهو أن يعبدوا الله كأنهم يرونه.

ومن الآثار الإيمانية لهذا الالتفات: أنه يحقق المراقبة لله –سبحانه وتعالى– ويرتقى المؤمن من درجة الإيمان إلى مرتبة الإحسان وهي أن تعبد الله كأنك تراه، فإذا بلغ علمه اليقين الجازم أن الله يطلع على خفايا الإنسان ويحاسبه عليها، يحمله على التهيب من الإقدام والجرأة على حدود الله واقتحام حرماته حياء منه سبحانه، فبقدر قوة إيمانه بسعة علم الله تزداد خشيته، وترتدع نفسه، وبقدر ضعف إيمانه وجهله بذلك يكثر خطؤه ويتوالى انحرافه.

ومن ثم، فإن هذه القراءة الشاذة تُعد إضافة بيانية وتفسيرية بالغة الأهمية، تؤكد المعنى، وتُعزّز الفهم، وتُغني التفسير، وتُسهم في بناء الوعي الإيماني العميق في نفوس المؤمنين.

***

ومن المواضع التي ورد فيها الانتقال من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب قوله تعالى: "وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)"(١٤)

القراءات الشاذة التي أثرت في معنى الآية: (تدخلونها) بتاء الخطاب المفتوحة والبناء للفاعل، رويت عن أبي عبد الرحمن السُّلمي–رضي الله عنه.(١٥)

ففي هذه الآيات مثال واضح لأسلوب القرآن في بيان القيمة البلاغية في المتقابلات، وتميز الأشياء بأضدادها فبعد أن أبان –تعالى–حال المشركين وجزاءهم في الدنيا والآخرة، أعقبه ببيان حال المؤمنين الأتقياء في الدارين، فأخبر الله –سبحانه وتعالى–عن شدة تكذيب المشركين بالقرآن المنزل وبالوحي من قولهم: أساطير الأولين، وأبان سبحانه تحمل أوزارهم وأوزار أتباعهم، أتبعه ببيان أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالمنزّل، فأخبر الله تعالى عن السعداء المؤمنين إثر الإخبار عن الأشقياء المشركين، فسئل الذين اتقوا الكفر والمعاصي وخافوا الله: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل خيرا أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به وبرسوله، حتى تتم المقارنة بين وعد هؤلاء وتبشيرهم، ووعيد أولئك المشركين.

ففي القراءة الشاذة (تدخلونها) خطاب للمؤمنين فيه تخصيص ووعد من الله وتبشيرهم أن من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة.

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، في مقابلة أولئك، بقوله سبحانه الذين تتوفاهم الملائكة طيبين أي طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي وكل سوء يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون أي لتدخل أرواحكم الجنة فإنها في نعيم برزخي إلى البعث، أو المراد بشارتهم بأنهم يدخلونها كقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)" (١٦) وهنا تبشير ثاني من الملائكة "يقولون سلام عليكم" وبشارة بالجنة، بما كنتم تعملون في الدنيا من الصالحات، فأخبر الله تعالى عن السعداء المؤمنين إثر الإخبار عن الأشقياء المشركين، ليتضح الفرق.

وقد ورد في السنة النبوية تبشير النبي–صلى الله عليه وسلم–لبعض الصحابة–رضوان الله عليهم–بالجنة منها: عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: "أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ." (١٧)

والمتأمل في جواب المشركين الجاحدين نجد الجواب جاء بالرفع أي هو أساطير الأولين، بينما جاء النصب في جواب المؤمنين المقرين بالتنزيل أي أنزل خيرا، فإن قيل: لم ارتفع جواب المشركين في قولهم أساطير الأولين وانتصب في قوله خيرا.

فالجواب: فصلا بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، أي أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل فلما سئلوا قالوا: أساطير الأولين يعني الذي يقوله محمد – صلى الله عليه وسلم– أساطير الأولين، والمؤمنين إنما كانوا مقرين بالتنزيل، فإذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا يعنون أنزل خيرا."(١٨)

"والمعنى أن المؤمنين سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يترددوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة خيرا المنصوبة، فإن لفظها شامل لكل خير في الدنيا وكل خير في الآخرة، ونصبها دال على أنهم جعلوها معمولة ل أنزل الواقع في سؤال السائلين، فدل النصب على أنهم مصدقون بأن القرآن منزل من عند الله، وهذا وجه المخالفة بين الرفع في جواب المشركين حين قيل لهم: ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين، بالرفع وبين النصب في كلام المؤمنين حين قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا بالنصب."(١٩)

فمقتضى سياق الآيات الحديث عن المتقين ووعد الله –سبحانه وتعالى– لهم في قوله "جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها" بياء الغيبة ليناسب سياق الآية، فجاءت القراءة الشاذة (تدخلونها) بتاء الخطاب بعد أن كان السياق للغائب في قوله تعالى "وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ" على طريقة الالتفات إليهم، وخطابهم وجها لوجه وتبشيرهم بالجنة، ففي ذلك بشارة عظيمة، عما وعد الله –تبارك وتعالى– هؤلاء المؤمنين في مقابل وعيد المشركين، حيث بُشِّروا بما يؤلون إليه من دخول الجنة، واستحضار تلك الحالة البديعة حالة دخولهم لدار الخير والحسنى والجنات.

***

ومن المواضع أيضا قوله تعالى: "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (٢٠)

القراءات الشاذة في الآية: (أن تؤتوا)(٢١) رويت عن أبي حَيَوَة وابن قُطَيب وأبي البَرَهسَم وأبي بحرية.

نزلت هذه الآية الكريمة في أبي بكر الصديق–رضي الله عنه– ومِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَة–رضي الله عنه–،[٢٢] وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره وقرابته وكان من المهاجرين الذين شهدوا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم بدرًا–، وقد وصفه الله–سبحانه وتعالى–بأنه من أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله فهذه صفات لموصوف واحد، "جئ بها بطريق العطف تنبيهًا على أن كلًا منها علة مستقلة لاستحقاقه الإيتاء وقيل لموصوفات أقيمت هي مقامها، وحذف المفعول الثاني لغاية ظهوره أي على أن لا يؤتوهم شيئا، فالحلف على ترك مواساة واحد منهم سد لباب عظيم من المعروف وناهيك بمن جمع الأوصاف كلها مثل مسطح الذي نزلت الآية بسببه."[٢٣]

وكان مسطح ممن تكلم في أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–فلما نزلت براءة عائشة–رضي الله عنها–، أقسم أبو بكر الصديق–رضي الله عنه– ألاَّ ينفق على مسطح وأنْ يمنع عنه عطاءه وبِرّه، ولا ينفعه بنافعة بعد ما رمى عائشة–رضي الله عنها–بالإفك ظلمًا وافتراءً، فقد أتت الصديق–رضي الله عنها–الإساءة من حيث لا يحتسب؛ فالإنسان إذا أحسن إلى قريب منه وقابله بالإساءة كان ذلك أشد عليه مما إذا صدرت الإساءة من الغريب، وقد اجتمعت في حق مسطح هاتين الجهتين فقره وقرابته لأبي بكر الصديق–رضي الله عنها–، يقول طَرَفة بن العبد:

وظُلْمُ ذَوي القُرْبَى أَشَدّ مَضاضَةً ... على المَرءِ مِنْ وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ [٢٤]

أقبل الله –سبحانه وتعالى– بفضله ومنّه على أولي الفضل في الدين والسعة في المال ألا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان، وأن يُصحّح للصِّديق هذه النظرة فيمن ينكر الجميل ولا يُقدِّر صنائع المعروف، وتُوجِّه انتباهه إلى جانب الخير الباقي عند الله لا عند الناس.

قال الرازي–رحمه الله–: "واعلم أن الله تعالى وصف أبا بكر في هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه في الدين أحدها: أنه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع، والواحد إذا كني عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه، فانظر إلى الشخص الذي كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علو شأنه!، وأن الله تعالى لما أمره بذلك لقبه بأولي الفضل وأولي السعة كأنه سبحانه يقول أنت أفضل من أن تقابل إساءته بشيء وأنت أوسع قلبا من أن تقيم للدنيا وزنا، فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الإساءة، ومعلوم أن مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين."(٢٥)

وأن هذا انتصار للنفس البشرية بالانتقام، فمجاهدة النفس من أعظم أنواع المجاهدات، ومدخل من مداخل الشيطان، فقد عُطفت " وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ"على ما قبلها "لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ" ، قال ابن عاشور: "وهذا عطف خاص على عام للاهتمام به لأنه قد يخفى أنه من خطوات الشيطان فإن من كيد الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير إذا علم أن الموسوس إليه من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه ممن يتعذر عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة."(٢٦)

وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم، فإن الجزاء من جنس العمل، وهذه في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام.

وغاية عموم الخطاب للمؤمنين، وقد أخرج الخطاب من دائرة الاختصاص بأبي بكر الصديق –رضي الله عنه– إلى سائر المؤمنين على مر العصور والأزمان؛ فالآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع غيره ممن ينفق عليه.

فالالتفات في قوله تعالى (تؤتوا) بخطاب أبي بكر الصديق–رضي الله عنه– بصيغة الخطاب بعد قوله تعالى "وَلَا يَأْتَلِ" وكان حق السياق استمرار صيغة الغيبة كما هو في القراءة المتواترة، ولكن جاءت القراءة الشاذة (تؤتوا) بالخطاب من الله–سبحانه وتعالى– فأقبل سبحانه بفضله ومنّه وطوله على أولي الفضل، لتوجيه ذلك الخطاب إلى أبي بكر الصديق–رضي الله عنه– مرغبًا في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، وأن لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه إلى ما كان عليه من الإحسان، وأن يكظم غيظه ويعفوا عن المسئ، فالمواجهة أبلغ وسيلة لنيل هذه المقاصد، وحث على صلة الرحم، فهذا في غاية الترفق والعطف في صلة الأرحام، وفي الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها، ولطف الله فيها بالقذفة العصاة، فإن لذة الخطاب تنسي كل عتاب.

وأشار الزمخشري والبيضاوي وأبو حيان والسمين الحلبي وأبو السعود والألوسي والشوكاني إلى وجود الالتفات في القراءة الشاذة ولم يُذكر فائدة هذا الالتفات.

ويعضد هذا الالتفات ويقويه قراءة ابن مسعود، والحسن، وسفيان بن حسين، وأسماء بنت يزيد «ولتعفوا ولتصفحوا»[٢٧] بالتاء من فوق فيهما وهو أمر خطاب للحاضرين، وقد ختمت الآية بقوله "أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ" عودا إلى ضمير الخطاب مرة أخرى، مناسبة للقراءة الشاذة (أن تؤتوا) تأكيدا منه سبحانه إلى جزاء المحسنين والكاظمين الغيظ، وتشجيعا له على الإنفاق والصبر على العاصين، لتشحذ الهمم ويصبح الصبر والثبات الغاية القصوى لنيل رضا الله سبحانه وتعالى والفوز بالكرامة عنده، وقال بعض الناس هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل من حيث لطف الله فيها بالقذفة العصاة بهذا اللفظ.

***

كذلك ورد الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: "وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)"[٢٨]

القراءات الشاذة التي أثرت في معنى الآية: (ألا تتقون) بتاء الخطاب، رويت عن عبد الله بن مسلم بن يسار، وابن سلمة، وعبيد بن عمير وأبي حازم، وأبي قلابة رضي الله عنهم.[٢٩]

قال الطبري –رحمه الله–: "ولم يقل ألا تتقون بالتاء، لأن التنزيل كان قبل الخطاب، ولو جاءت القراءة فيها بالتاء كان صوابًا، كما قيل "قل للذين كفروا سيغلبون" و"ستغلبون."[٣٠]

فالمقام في الآية الكريمة مقام تعجب لموسى –عليه السلام–من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه، فإن موسى–عليه السلام– كان مطلعًا على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم وقد علم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتل أنبياء بني إسرائيل، ووصفهم بالظلم لأنهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم، وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم، كاستعباد بني إسرائيل، وذبح أبنائهم.

ودل قوله سبحانه: "أَلَا يَتَّقُونَ" على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى، والاستفهام لإنكار انتفاء تقواهم، فجمع في هذا السياق من المعاني نفي التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى.

"فأدخلت همزة الإنكار على الحال دلالة على إنكار عدم التقوى والتوبيخ عليه ليفيد إنكار الظلم من طريق الأولى فإن فائدة الإتيان بهذه الحال الإشعار بأن عدم التقوى هو الذي جرأهم على الظالم."[٣١]

وتوغل فرعون وقومه في الظلم ودوامهم عليه تقوية للباعث لموسى– عليه السلام–على بلوغ الغاية في الدعوة وتهيئة لتلقيه تكذيبهم بدون مفاجأة، ولذا ذكر سبحانه قصة موسى–عليه السلام–وما قاسى مع فرعون وقومه بعد

ذكر تكذيب قريش لنبينا الكريم–صلى الله عليه وسلم–بما جاءهم من الحق وإعراضهم عنه؛ ليكون ذلك تسلية لما كان يلقاه عليه الصلاة والسلام من كفار قريش.

قال الزمخشري: "فإن قلت: بم تعلق قوله: ألا يتقون؟ قلت: هو كلام مستأنف أتبعه–عز وجل–إرساله إليهم للإنذار، والتسجيل عليهم بالظلم، تعجيبًا لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقله خوفهم وحذرهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون ألا يَتَّقُونَ حالا من الضمير في الظالمين، أى: يظلمون غير متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال."(٣٢)

فمقتضى سياق الآيات الحديث عن بني إسرائيل من إرسال موسى–عليه السلام–إليهم فختمت الآية بقوله "يَتَّقُونَ" بياء الغيبة ليناسب سياق الآية، ليتحد مع ما قبله من حيث الجهة، ويجوز في مثل ذلك الخطاب والغيبة فيقال قل لزيد تعطي عمرًا كذا ويعطي عمرًا كذا، فلما تحول الكلام هذا التحول دلَّ على أن هناك فائدة وراءه من أجلها عَدَل من الغيبة إلى الخطاب، فجاءت القراءة الشاذة (تتقون) بتاء الخطاب بعد أن كان السياق للغائب في قوله تعالى "الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" على طريقة الالتفات إليهم، وجبههم، وضرب وجوههم بالإنكار، والغضب عليهم، فهذا أوضح إيقاعًا للحجة على المنكرين وأبلغ في تشديد الوعيد على النفس، لأن المواجهة بالشيء تقتضي شدة الإنكار وعظم الشئ الذي ينكر، التوبيخ والاستنكار أبلغ وأوقع في النفس عندما يكون بالمواجهة ويدلل على شدة ما أنكر، ولينتبه الحاضرين قبل أن يحل بهم ما حل بفرعون وقومه، بذكر عواقب المكذبين برسلهم ليحذر المخاطبون بالدعوة إلى الإسلام من أن يصيبهم ما أصاب المكذبين.

"فإن قلت: فما فائدة هذا الالتفات، والخطاب مع موسى –عليه الصلاة والسلام–في وقت المناجاة، والملتَفت إليهم غُيَّب لا يشعرون؟ قلت: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم، لأنه مُبلِّغه ومُنْهيه وناشرُه بين الناس، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين، تدبرا لها واعتبارا بموردها."(٣٣)

وقد ذكر الزمخشري مثالًا لإبراز المعنى في صورةٍ تكسبه روعة وجمالًا ويخرج اللفظ الخفي إلى الجلي فقال: "كما ترى من يشكو ممن ركب جناية إلى بعض أخصَّائه والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مِزاجه وحمى غضبه قطع مُباتة صاحبه، وأقبل على الجاني يوبخه ويعنفه به ويقول له: ألا تتقي الله؟ ألا تستحي من الناس؟."(٣٤)

فالالتفات إلى الخطاب منبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى، وفيه وعيد بمواجهة المتلقين بالتوبيخ والإنكار وفيه دلالة على شدة الغضب.

إن المتأمل في نماذج صور الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في القراءات القرآنية الشاذة يتبين له أن من أجل أغراضها وأوضحها إيقاعا للحجة على المنكرين وأبلغ في تشديد الوعيد على النفس، كذلك من أغراض الالتفات التشديد في التوبيخ، والمواجهة في الخطاب أبلغ في التوبيخ والإلزام وإيقاع الحجة أقوى، فالخطاب بعد الغيبة مبالغة لهم في الإعلام بحال مكرهم، فهي صورة قوية شديدة حاسمة للمواقف، لذا فهي تستعمل في مواطن التخويف والترهيب أكثر من مواطن الإيناس والتطمين، وإضعافًا للمشركين وإظهارًا لعجزهم، فالالتفات لمخاطبتهم تصغيرًا لهم وحطًا من شأنهم، وتعجيبًا

واستنكارًا، فالمخاطبة أبلغ في دفعهم ناحية الصواب ودحض جحودهم ومكابرتهم.

ومن خلال ما تقدم من صور الالتفات وأمثلته وأسراره البلاغية يتضح لنا أهمية أسلوب الالتفات وقيمته البلاغية، ومدى عناية القرآن الكريم بهذا الفن، واهتمام المفسرين به، وأنهم كانت لهم العناية الفائقة والاهتمام الكبير في إبراز هذا النوع وما حواه من نكات بديعية، ولطائف قيمة والوقوف على أسراره البلاغية التي لا تنفد ولا تنحصر، وما قمت به من تجلية لمواقف المفسرين لهذا الفن ومن إبراز لهذه الأسرار قليل من كثير مما جاء في كتاب الله وما قام به علماء التفسير، وما ذكرت أمثلة ونماذج، وأسرار كتاب الله لا يمكن حصرها.

الخاتمة

أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

١. يُعد الالتفات من أبرز السمات الأسلوبية في الخطاب القرآني، وقد وُصف بـــ"شجاعة العربية" لما فيه من قدرة على التنقل بين صيغ الكلام الثلاث (الغائب، والمخاطب، والمتكلم) دون أن يُضعف ذلك من بلاغة النص، بل يزيده حيوية وتأثيرًا.

٢. إن العدول عن مقتضى الظاهر في الخطاب القرآني لا يأتي عبثًا، وإنما يُقصد به تنبيه المتلقي إلى دلالة معينة، إذ تُسهم تنويعات الخطاب في كسر السائد في مقتضى اللغة لتجذب المتلقي إلى معنى محدد.

٣. يحقق الالتفات أغراضًا بلاغية متنوعة طبقًا للسياق الدلالي للنص القرآني كالتوبيخ والتعظيم والاهتمام وغيرها من المقاصد الإلهية، وتُضفي على النص بعدًا جماليًا وتأثيرًا بيانيًا بالغًا.

الهوامش:

[١] مثال ذلك: في قوله تعالى: "إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ" (سورة آل عمران آية :١٥٣)، قرأ ابن محيصن وابن كثير في رواية شبل: يصعدون ولا يلوون بالياء على الخروج من الخطاب إلى الغائب، في المحرر الوجيز لابن عطية (٣٧٤/٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢٨٥/٨)، والدر المصون للسمين الحلبي (٤٣٨/٣)، وكذلك في قوله تعالى "إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً" (سورة النساء: آية ٣١) ، قرأ المُفَضّل عن عاصم: يكفر ويدخلكم بالياء على الغيبة، في المحرر الوجيز (٣٠/٤) والبحر المحيط لأبي حيان (٢٩٦/٩)، والسبعة لابن مجاهد (صـــ٢٣٢).

[٢] المحتسب لابن جني (٣٣/١).

[٣] فضائل القرآن لأبي عبيد، باب ذكر ما رفع من القرآن بعد نزوله ولم يثبت في المصاحف (١٥٤/٢)، والإتقان للسيوطي (صـــ٢٤٠).

[٤]سورة آل عمران: ١١٦،١١٧

[٥] في مختصر ابن خالويه (صـــ٤٣) عن الأعرج وعيسى، وفي شواذ القرآن للكرماني (١٦٩/١)، والبحر المحيط لأبي حيان (١٢٥/٨) عن عبد الرحمن بن هرمز، والمحرر الوجيز لابن عطية (٢٨٢/٣) وقد ذكر ابن عطية اسمه كاملا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وبدون نسبة في الكشاف للزمخشري (٣٧٠/١)، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري (٣٤١/١)، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٢٠/٢).

[٦] زاد المسير لابن الجوزي (٣٥٩/١)، والبحر المحيط لأبي حيان (١٢٣/٨).

[٧] سورة التوبة: آية ٧٨

[٨] رويت عن علي في الكشاف للزمخشري (١٧٩/٢)، وروح المعاني للألوسي (٣٣٤/٥)، وزاد ابن خالويه في القراءات الشاذة (صـــ٨٩) السلمي، وعن أبي عبد الرحمن والحسن في المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧٦/٦)، وعن علي وأبي عبد الرحمن والحسن في البحر المحيط لأبي حيان (٣٦٧/١٤)، والدر المصون للسمين الحلبي (٨٨/٦)، واللباب لابن عادل (١٥٤/١٠)، وبدون نسبة في تفسير البيضاوي (٩٠/٣)، وتفسير أبي السعود (٤١٦/٣)، وفتح القدير للشوكاني (٦٣٧/٢).

[٩] نظم الدرر للبقاعي (٥٥٤/٨).

(١٠) ينظر تفسير الرازي (١١٠/١٦)، واللباب لابن عادل (١٥٥/١٠).

(١١) تفسير أبي السعود (٤١٦/٣).

(١٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٣٦٧/١٤).

(١٣) نظم الدرر للبقاعي (٥٥٤/٨).

(١٤) سورة النحل: ٣٠،٣١

(١٥) رويت عن أبي عبد الرحمن السُّلمي في شواذ القرآن للكرماني (٤٣٤/١)، والمغني في القراءات للنوزاوازي (صـ١١٠٦)، والبحر المحيط لأبي حيان (٦٨/١٧)، والدر المصون للسمين الحلبي (٢١٦/٧)، واللباب لابن عادل (٥١/١٢).

(١٦) سورة فصلت: آية (٣٠)

(١٧) صحيح البخاري (٣٩/٥) حديث (٣٨٢٠).

(١٨) تفسير الثعلبي (١٥/٦)، تفسير الكشاف للزمخشري (٤٣٦/٢)، وتفسير الرازي (٢٠١/٢٠)، والبحر المحيط لأبي حيان (٦٥/١٧).

(١٩) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤١/١٤).

(٢٠) سورة النور: ٢٢

(٢١) رويت عن أبي حيوة وابن قطيب وأبي البرهسم في القراءات الشاذة لابن خالويه (صـ١٥٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (٥٠٧/١٩)، والدر المصون للسمين الحلبي (٣٩٥/٨)، واللباب لابن عادل (٣٣٣/١٤)، وروح المعاني للألوسي (٣٢١/٩)، وعن أبي حيوة وابن قطيب في الكشاف للزمخشري (١٩٥/٣)، وفي شواذ القرآن للكرماني عن أبي بحرية (٥٥٦/٢)، وعن أبي حيوة في فتح القدير للشوكاني (٢٦/٤)، وبدون نسبة في أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١٠٢/٤)، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٠١/٥).

(٢٢) فعن عروة بن الزبير عن حديث عائشة زوج النبي –صلى الله عليه وسلم–، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، كلٌ حدثني طائفة من الحديث فأنزل الله: {إن الذين جاءوا بالإفك} العشرَ الآيات كلها في براءتي، فقال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا، بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله: {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة، أن يؤتوا أولي القربى} الآية قال أبو بكر: "بلى والله

إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبدا." صحيح البخاري ح ٦٦٧٩ (١٣٨/٨).

[٢٣] تفسير أبي السعود (١٠١/٥)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٩/١٨).

[٢٤] ديوان طرفة بن العبد، لطَرَفَة بن العَبْد صـــ٢٧)، أشد مضاضة: أشد تأثيراً وإيلاماً.

[٢٥] التفسير الكبير للرازي (٣٤٩،٣٥٠/٢٣).

[٢٦] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٨/١٨).

[٢٧] المحرر الوجيز لابن عطية (٤٧٠/١٠)، البحر المحيط لأبي حيان (٥٠٨/١٩)، والدر المصون للسمين الحلبي (٣٩٥/٨)، واللباب لابن عادل (٣٣٣/١٤)، وروح المعاني للألوسي (٣٢١/٩).

[٢٨] سورة الشعراء: الآية (١٠،١١)

[٢٩] في مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه (صـــ١٦٠) عن عبد الله بن مسلم بن يسار، وزاد ابن جني في المحتسب (١٢٧/٢)، والكرماني في شواذ القرآن (٥٧٨/٢) ابن سلمة، وزاد ابن عطية في المحرر الوجيز (٩٣/١١) أبا قلابة، وفي تفسير الثعلبي (١٥٩/٧) عن عبيد بن عمير، وزاد الشوكاني في فتح القدير (١٥٠/٤) عن أبي حازم، وبدون نسبة في الكشاف للزمخشري (٢٦٧/٣)، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري (٢١٠/٢).

[٣٠] تفسير الطبري (٥٥٢/١٧).

[٣١] روح المعاني للألوسي (٦٤/١٠).

[٣٢] ينظر تفسير الكشاف للزمخشري (٢٦٧/٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (١٤٩/٢٠).

[٣٣] تفسير الكشاف للزمخشري (٢٦٧/٣)، وتفسير الرازي (٤٩٣/٢٤).

[٣٤] تفسير الكشاف للزمخشري (٢٦٧/٣).

قائمة المصادروالمراجع:

أولا: المصادر:

١) القرآن الكريم.

٢) إعراب القراءات الشواذ، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (٦١٦هـ)، ت: د/ محمد السيد أحمد عزوز، ط عالم الكتب ببيروت، ط٢ (١٤١٣هـ-٢٠١٠م).

٣) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، للشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي (ت١٤٠٣هـ)، راجعه الشيخ صبري كُريم، ط دار السلام بالقاهرة، ط١ (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م).

٤) ديوان طرفة بن العبد، لطَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي (المتوفى: ٥٦٤ م)، ت: مهدي محمد ناصر الدين، ط دار الكتب العلمية، ط٣ (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م).

٥) سنن الدارمي، للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي (ت٢٥٥هـ)، ت: د/ مصطفى الذهبي، ط دار الحديث بالقاهرة، ط١ (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

٦) شواذ القرآن واختلاف المصاحف، لشمس الدين محمد بن أبي نصر بن عبد الله الكرماني (ت بعد ٥٦٠هـ)، ت: د/ الموافي الرفاعي البيلي، ط المكتبة العصرية، ط١ (١٤٣٦هـ-٢٠١٥م).

٧) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، ت: علي النجدي، ود/ عبد الحليم النجار، ود/ عبد الفتاح شلبي، ط وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٤٣٥هـ-٢٠١٤م).

٨) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه=صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ)، ت: محمد زهير، ط دار طوق النجاة، ط١ (١٤٢٢هـ).

٩) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن حمدان لابن خالويه (ت٣٧٠ه)، ت: محمد عيد، ط دار الصحابة للتراث بطنطا، ط١ (١٤٢٨ه-٢٠٠٨م).

١٠) المغني في القراءات، لمحمد بن أبي نصر الدهان (القرن السادس)، ت: د محمود الشنقيطي، ط١ (١٤٣٩ه-٢٠١٨م).

ثانيا: المراجع:

١) الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١ه) ت: محمد متولي منصور، ط مكتبة دار التراث، ط١ (١٤٣١ه-٢٠١٠م).

٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم= تفسير أبي السعود، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي (ت ٩٨٢ه)، ت: محمد صبحي حسن حلاق، ط دار الفكر ببيروت، ط١ (١٤٣٢ه-٢٠١١م).

٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل= تفسير البيضاوي، لأبي سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥ه)، إعداد محمد المرعشلي، ط دار إحياء التراث العربي ببيروت.

٤) البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (ت ٧٤٥ه)، ت: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط مركز هجر، ط١ (١٤٣٦ه-٢٠١٥م).

٥) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، المعروف بالتحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ه)، ط الدار التونسية للنشر-تونس (١٩٨٤م).

٦) التفسير الكبير = مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦ه)، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط٣ (١٤٢٠ه).

٧) جامع البيان عن تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ه)، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط هجر، ط١ (١٤٢٢ه-٢٠٠١م).

٨) الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١ه)، ط دار الريان للتراث.

٩) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦ه)، ت: د أحمد محمد الخراط، ط دار القلم.

١٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني=تفسير الألوسي، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي (ت ١٢٧٠ه)، ت: علي عبد الباري عطية، ط دار الكتب العلمية ببيروت، ط١ (١٤١٥ه).

١١) زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت ٥٩٧ه)، ت: أحمد شمس الدين، ط دار الكتب العلمية ببيروت، ط١ (١٤١٤ه-١٩٩٤م).

١٢) السبعة في القراءات، لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس ابن مجاهد (ت٣٢٤ه)، ت: د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف، ط٤.

١٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ه)، ط دار ابن الجوزي بالقاهرة، ط١ (٢٠١٢م).

١٤) فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، ت: أحمد بن عبد الواحد الخياطي، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

١٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ت: يوسف الحمادي، ط مكتبة مصر، ط١ (١٤٣١هـ- ٢٠١٠م).

١٦) الكشف والبيان عن تفسير القرآن= تفسير الثعلبي، لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، ت: بن عاشور، ط دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط١ (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).

١٧) اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي بن عادل (ت بعد٨٨٠هـ)، ت: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، ط دار الكتب العلمية، ط١ (١٤١٩هـ-١٩٩٨م).

١٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، ت: عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال، ط دار الفكر العربي بالقاهرة، ط٢.

١٩) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن سن الرباط بن علي البقاعي (ت٨٨٥هـ)، ط دار الكتاب الإسلامي-القاهرة.